﴿المحاضرة - 03 - الثالثة﴾

بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي
الأدب الجزائري في عهد الدولة الأغلبية

عناصر الدرس

1- تاريخ الدولة الأغلبية
2- الجزائر الأغلبية
3- الحياة الثقافية في الجزائر الأغلبية
4- الأدب الجزائري القديم في ظل الدولة الأغلبية
5- الأدب الجزائري خلال العهد الأغلبي خصائصه، تطوره، وأثره

1- تاريخ الدولة الأغلبية:

الأغالبة (184-296هـ،800-909م .(أسس هذه الدولة إبراهيم بن الأغلب. ولاه الخليفة هارون الرشيد إفريقية سنة 184هـ، ثم استجاب لطلبه في الإمارة، وجعلها وراثية في نسله من بعده. فحكم إفريقية من الأغالبة أحد عشر أميرًا فترة تزيد على القرن، تمتعوا خلالها باستقلال واسع عن الخلافة العباسية ببغداد. بيد أن علاقتهم بجيرانهم الرسميين والأدارسة والأمويين كان يغلب عليها الفتور والتوتر، لما ظل يحلم به أمراء بني الأغلب من إعادة توحيد بلاد المغرب تحت راية العباسيين. ولو أن ذلك لم يمنع بقاء حركة التبادل التجاري والثقافي قوية بين دويلات بلاد المغرب، كما لم يحل دون قيام تعاون بينها في الأزمات.

وقد عرفت إفريقية في العهد الأغلبي فترات ازدهار وقوة، وأصبحت من الأقاليم الإسلامية الكبرى التي أشعَّت بحضارتها على المغرب العربي وجزر البحر المتوسط وأوروبا وجنوبي الصحراء الكبرى. خاصة في عهد إبراهيم الأول (184-196هـ)، الذي أسس الدولة ووطد أركانها، وفي عهد ابنه زيادة الله الأول (201-223هـ)، الذي وجه جيشًا بقيادة أسد بن الفرات سنة 212هـ لفتح جزيرة صقلية.

وفي عهد الأمير محمد الأول (226-242هـ)، الذي شن حملة على مدينة روما نفسها سنة232 هـ، 846م، فاقتحمت عساكره أسوارها وعادت بغنائم وأسلاب كثيرة. وكذلك في عهد الأمير إبراهيم الثاني (261-289هـ) الذي ثبَّت أقدام المسلمين بصقلية، وواصل الفتوحات في جنوبي إيطاليا، وبنى مدينة رقادة وأسس بها بيت الحكمة، على غرار بيت الحكمة ببغداد، تشجيعًا للحركة الفكرية والعلمية التي كانت قائمة بجامع عقبة بن نافع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس، وأنجبت علماء أمثال القاضي أسد بن الفرات والإمام سحنون بن سعيد. كما عرفت إفريقية فترات اضطراب وضعف في عهد الأمير زيادة الله الثالث (290-296هـ)، مما سهل للشيعة الاستيلاء على القيروان سنة 296هـ، 909م" [1].

- 1

2- الجزائر الأغلبية:

الرواية الوحيدة التي عينت حدود الجزائر الأغلبية غربا. هي ذكر اليعقوبي للزاب. إذ نسب إليه مدنا منها باغاية وتيجس وميلة وسطيف، وبلزمة ونقاوس وطبنه ومقرة وأربة. وقال: "ومدينة أربة وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب"[1]. ولم يتجاوزها المسودة". والمسودة هم العباسيون لان راياتهم سود وشعارهم السواد. وادنة كانت بالحضنة. ويظهر أنها تنتهي جنوبا إلى وادي ريغ وإلى شط الجريد، وشمالا إلى نواحي سطيف وميلة. ويخرج عنها شمالا وطن فرجيوة وجبال بني خطاب وبني تليلان إلى سكيكدة. وغربا وطن زواوة وصنهاجة.

3- الحياة الثقافية في الجزائر الأغلبية:

ونعم هذا القسم من الجزائر في عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه فيذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان، وما تحقق لحكامها الأغالبية.. وتبلغ الجزائر الأغلبية أعظم قسط من الحضارة حين أسس إبراهيم بن أحمد الأغلبي (261-874هـ) في مدينته رقادة التي بناها بجوار القيروان بيت الحكمة على غرار بيت الحمة للرشيد والمأمون في بغداد. وهو أول جامعة للعلوم نشأت في بلاد المغرب العربي، وكان يدرس بعا الطب والفلسفة، ونعم الشرق الجزائري آنذاك في ظل الأغالبة بالأمن والعدل، وذلك حين ولى الأغالبة ولاة تقاة يحسنون السياسة[2].

4- الأدب الجزائري القديم في ظل الدولة الأغلبية:

وكان بكر بن حماد الشاعر الرستمي همزة الوصل الثقافية بين الدولتين الرستمية في الجزائر والأغلبية في تونس؛ وكان هذا الشاعر يتردد على السلطان إبراهيم بن أحمد الأغلبي[3] ، الذي وصفه ابن الأبار بالطاغية[4] ولما كان هم بكر بن حماد الاسترزاق، فلم يكن

---

[3]- "إبراهيم بن احمد الاغلبي ولي بعد اخيه ابى عبد الله محمد بن احمد، الذي يعرف بأبي الغرانيق، لكثرة ولوعه بتصيدها. وكان محمد هذا قد عقد لابنه أبى عقال الأغلب ولاية عهده، واستحلف إبراهيم هذا خمسين يميناً بجامع مدينة القيروان ألا ينازعه، وذلك بمحضر مشيخة الأغلب وقضاة القيروان وفقهائها، فلما هلك أبو الغرانيق لست مضين من جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين، خلع ابنه أهل القيروان وقدموا إبراهيم بن أحمد في قصة طويلة، فابتلاهم الله بظلمه، وامتحنهم بإسرافه، حتى سموه الفاسق. وكان أول أمره قد أحسن السيرة فيهم نحواً من سبع سنين، ثم ارتكب من العدوان وسفك الدماء ما لم يرتكبه أحد قبله، وأخذ في قتل أصحابه وكتابه وحجابه، حتى إنه قتل ابنه أبا عقال وبناته؛ والأخبار عنه في ذلك فظيعة شنيعة. وكان كثير المال شديد الحسد، على اتصافه الحزم والعزم والضبط للأمور. ولم يكن يوصف بعلم بارع ولا أدب، وكان ربما صنع من الشعر شيئاً ضعيفاً، فمن ذلك قوله:

نحـــنُ النجـــومُ بنـــو النجـــومِ، وجَـــدُّنَا قمـــرُ السَّـــماءِ أبـــو النجـــومِ تمـــيمُ
والشَّـــمسُ جـــدَّتُنَا، فمـــنْ ذَا مثلَنَـــا مُتواصـــلانِ: كريمـــةٌ وكـــريمُ؟

وحذف هذا النظم الغث أولى من إثباته، وليته بعقاب أهل بيته عوقب على أبياته. ولم يل إفريقية قبله أطول عمراً منه في سلطانها. ملك تسعاً وعشرين سنة إلا خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ليطول به الابتلاء؛ والله يفعل ما يشاء"

ينظر إلى قبيح فعاله، بقدر ما ينظر إلى مليح ماله. وكان بكر بن حماد يمدحه دونما حرج؛ ولعله يجمل له فعاله، ومن ذلك قوله يلاطفه عندما وجده مختليا بجواريه[1].

خُلِقْـــنَ الْغَـــوَانِي لِلرِّجَـــالِ بَلِيَّـــةً فَهُـــنَّ مَوَالِينَـــا وَنَحْـــنُ عَبِيـــدُهَا
إِذَا مَـــا أَرَدْنَ الْـــوَرْدَ فِـــي غَيْـــرِ حِينِـــهِ أَتَتْنَـــا بِـــهِ فِـــي كُـــلِّ حِـــينٍ خُـــدُودُهَا

وكتب تحت الأبيات:

فَـــإِنْ تَكُـــنِ الْوَسَـــائِلُ أَعْـــوَزَتْنِي فَـــإِنَّ وَســـائِلِي وَرْدُ الْخُـــدُودِ

يروى أن بكر بن حماد جاء ببعض المديح لهذا السلطان، فوجده منشغلا ببعض جواريه، فاستعمل خادما وأرسل معه تلك الأبيات؛ فلما وصلت السلطان أعجبته، وأعجبت الجواري، فتوسطن عند السلطان للإحسان إلى الشاعر؛ فوصله بمال كثير. إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن كيف استطاع بكر بن حماد أن يلين قلب هذا الرجل، ليجود عليه بالمال؟!. وهو الذي أسرف في القتل، وأفنى أصحابه، وكتابه، وحجابه، وقتل ابنه، وثمانية إخوة له رجالا، وثلاثمائة خادم بسبب منديل ضاع منه، كان يمسح به فمه بعد شرب الخمر[(2)].

إن الإجابة هي سحر الكلمة الشعرية، وحسن تمرس بكر بن حماد في التعامل مع الملوك؛ ومن غير ما شك أنه نظم تلك الأبيات عند قدومه على السلطان إبراهيم الأغلبي، فالأرجح أنه جاءه بمدائح مكتوبة جاهزة، فلما وجده مشغولا -كما ذكرنا- نظم تلك الأبيات في الحال، وأرسلها إليه، ففعلت فعلها.

وهي تدل على ذكاء بكر، حيث استغل جواري السلطان في التأثير عليه، ومدحهن بالجمال، واعترف لهن بالضعف أمام جمالهن، وأشرك معه السلطان وكل الرجال. وليس أجمل عند المرأة أن ترى الرجل عابدا لجمالها، خاصة إذا كان من ذوي الجاه والسلطان. إن صورة السلطان التي يمكن إدراكها، هي صورة السلطان اللاهي، الماجن، المغرور، والمتذوق لسحر الكلمة الشعرية.

ويتنقل الشاعر من عند السلطان إبراهيم بن أحمد الأغلبي، إلى أحمد بن سوادة بن سفيان[(3)] أحد العمال الأغالبة على الزاب؛ فيقول:[4]

وَقَائِلَـــةٍ: زَارَ الْمُلُـــوكَ فَلَـــمْ يُفِـــدْ فَيَـــا لَيْتَـــهُ زَارَ ابْـــنَ سُـــفْيَانَ أَحْمَـــدَا
فَتًـــى يُسْـــخِطَ الْمَـــالَ الَّـــذِي هُـــوَ رَبُّـــهُ وَيَرْضَـــى الْعَـــوَالِي وَالْحُسَـــامَ الْمُهَنَّـــدَا

ومدار البيتين حول الجود والشجاعة، وهما من صفات المديح اللائقة بالملوك؛ ومثل هذه الصفات تتردد كثيرا على أفواه الشعراء تملقا للسلاطين؛ ولكن من النادر أن نجد تركيبا لتلكم المعاني يشبه تركيب بيتي بكر. فالبيت الأول استفزازي، يستفز ممدوحه على العطاء فيعطي دون شعور، ويحط من قدر الممدوحين السابقين. أما البيت الثاني فيتضمن كناية طيبة، حيث كنى بالعوالي والسيف عن شجاعة السلطان. إنها صورة السلطان المعطاء الجواد إلى درجة التبذير، الشجاع البطل إلى درجة عشق السلاح بدل عشق النساء.

5- الأدب الجزائري خلال العهد الأغلبي خصائصه، تطوره، وأثره:

- ✓ من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن الأدب الجزائري القديم في هذه الفترة المبكرة من بلاد المغرب الأوسط، ذلك أن التعريب لم يكتمل، ولم يبلغ درجة النضج.
- ✓ ولكن ما قيل عن الدولة الرستمية في الحياة الثقافية يمكن قوله عن الدولة الأغلبية لأنهما دولتان متعاصرتان.
- ✓ ولكن هناك شيئا من الخصوصية يميز آداب كل دويلة في مرجعيته، فالدولة الرستمية أباضية خارجية لها فكر سياسي يختلف عن الدولة الأغلبية السنية الموالية للدولة العباسية. ولا يخفى أثر الأدب على السياسة.
- ✓ ما وصلنا من أثر أدبي جزائري أغلبي في هذه الفترة الشعر القليل الذي نظمه بكر بن حماد، وقد ذكرناه أعلاه.